[1]حكمة اللَّه

من صفات اللَّه ـ تبارك اسمه ـ أنه حكيم في كل ما يفعل. وقد يوجد أيضًا من البشر أشخاص حكماء، كقول الشاعر:

فخذوا العلم على أربابه ... واطلبوا الحكمة عند الحكماء

ولكن حكمة اللَّه تتميَّز عن كل هؤلاء بأنها حكمة غير محدودة، وأنها للخير، وتشمل الكل، وتقف العقول مبهورة أمامها.

وسنضرب الآن بعض أمثلة لحكمة اللَّه ولنتكلَّم أولًا عن حكمته ـ عزّ وجلّ **ـ في موضوع الخلق.**

* يقول داود النبي في المزمور: "ما أعظم أعمالك يا رب، كلها بحكمة صنعتها". الخالق العظيم بحكمة كبيرة رتَّب مواعيد الخلق: خلق الماء أولًا قبل أن يخلق النبات والعُشب لكي يتغذَّى النبات والعُشب عليه. وخلق هذيْن قبل أن يخلق الحيوان لكي يتغذَّى الحيوان على العُشب. وخلق الإنسان أخيرًا لكي يتغذَّى على النبات ولكي يكون الحيوان في خدمته.

* **وما أعجب حكمة اللَّه في علم وظائف الأعضاء بالنسبة إلى مخلوقاته:** انظروا كيف منح وظائف مُعيَّنة لكل مركز من مراكز المخ، وكذلك حكمته في وظائف القلب وعلاقته بالمخ، وفي وظائف كل جهاز من أجهزة الجسم، كالكبد، والكُلى، وكل عناصر الجهاز الهضمي، والجهاز الدوري، وعمل الدم، وعمل العظام. بل أيضًا وعمل الضمير، وعمل الأعصاب، وعمل العقل.

انظروا أيضًا حكمة اللَّه في قوانين الوراثة، وكيف يرث الجنين من صفات والديه، وبعض صفات الأجداد وما تركوه من صفات كامنة في الأعمام والأخوال. وما مركز الجينات في كل ذلك ومركز الهرمونات والكروموزمات. وما حكمة اللَّه في قوانين الوراثة المُتعلِّقة في الشكل العام وبالقامة، ولون العين ولون الشعر، وملامح الوجه ونوع فصيلة الدم وما إلى ذلك.

*** كذلك حكمة اللَّه في خلقه الطبائع مُتعددة ومتنوعة:** فقد خلق الملائكة أرواحًا بعيدة عن المادة، بصفات بعيدة تمامًا عن البشر. وخلق كائنات جامدة هي مادة فقط بلا نفس ولا روح كالجبال والأنهار والحجارة والرمل وخلق كائنات أخرى بعضها من جسد مادي ونفس: كالحيوانات والطيور والأسماك والحشرات ثم خلق الإنسان من جسد مادي ونفس وروح وله عقل وضمير وكل نوع من هذه الأنواع له صفاته التي يتميَّز بها.

وكل تلك الخليقة في تنوّع عجيب: تنوّع في اللون، وفي الشكل، وفي الفهم، وفي الطباع، وفي نوع النفسية والعقلية. بل وفي تنوّع أيضًا في النطق أو عدمه وفي نوع الأصوات أيضًا حتى لا تمل الخليقة من النظر إلى بعضها البعض.

تصوَّروا ماذا كانت الخليقة لو لم يوجد بها هذا التنوّع؟! أي لو كان الجميع من البشر مثلًا بعقلية واحدة ونفسية واحدة وشكل واحد! ينظر كل إنسان إلى غيره، وكأنه ينظر إلى مرآة!

بل إنَّ اللَّه أوجد مثل هذا التنوّع في خلقه للملائكة. فليسوا كلهم درجة واحدة ولا طغمة واحدة. وهناك ملائكة للتسبيح تقف أمام العرش الإلهي. وملائكة أخرى للخدمة تُرسَل في مهمات مُعيَّنة.

وفي الطبيعة الجامدة أوجد أنواعًا أيضًا: أوجد الضغط والحرارة والهواء والسُّحب والأمطار. بحيث ينتقل الهواء من الضغط الثقيل إلى الضغط الخفيف. وهذا الضغط الخفيف يخف بالحرارة وإذا ازدادت حدة الهواء وسرعته، يتحوَّل إلى رياح وعواصف ويمكن أن يتبخَّر الماء ويرتفع ويتحوَّل إلى سُحب ثم يتكثَّف أيضًا ويتحوَّل إلى مطر.

هناك حكمة وضعها اللَّه في قوانين الْفَلَك: في العلاقات القائمة بين الشموس والكواكب والنجوم والمجرَّات... وما ينتج عنها من الفصول ومن الحرارة والبرودة، والنور والظلمة، وعلاقة كل هذه بحياة الإنسان. كل ذلك بنظام ثابت عجيب وحكيم.

*** ونرى حكمة اللَّه في منحه للمخلوقات الضعيفة وسيلة تنجو بها من الكائنات التي هي أقوى منها:** فالأسد يستطيع أن يفترس الغزال. ولكن اللَّه منح للغزال قدرة عجيبة على الجري ينجو بها من الأسد. والكلب يستطيع أن يفترس القط، ولكن اللَّه منح القط قدرة على التَّسلُّق بحيث يتسلَّق الأشجار والأعمدة وينجو من الكلب. والقط عنده قدرة أن يفترس الفأر، لكن اللَّه منح الفأر قدرة على الحفر، فيحفر لنفسه مسالك يختبأ فيها من القط.. وهكذا بالنسبة إلى كائنات كثيرة.

*** يمكننا أيضًا أن نتأمَّل حكمة اللَّه في التجارب والألم،** بل وفي وجود الألم عامة. إنَّ الألم في الجسد يكشف مواضع المرض فيه. وما أخطر الأمراض التي لا يشعر فيها الإنسان بالألم وتظل تنتشر حتى تصبح صعبة العلاج. وقد سمح اللَّه بالألم من أجل قيادة الإنسان إلى التوبة أحيانًا. فإنَّ ساعة واحدة من الألم المُتعب قد تُرجِع الإنسان إلى اللَّه وتقوده إلى التوبة أكثر من عشرات العظات ففيما يشعر

أنه قريب من الأبدية، يستعد لها أو يشعر باحتياجه الشديد إلى الله فيسعى إليه. بل إنَّ الألم يوجد مشاعر الحنو والتعاطف بين الناس فيُساهم بعضهم في العمل على تخفيف آلام الغير وهكذا تنمو العلاقات الاجتماعية.

هناك تأمُّل آخر من جهة حكمة الله في الموت: فقد أوجد الله الموت لينقل الإنسان من حياة مادية فانية إلى حياة روحية باقية. ومن حكمة الله في الموت أنه لا يستبقي على الأرض أجيالًا متتابعة من شيخوخة عاجزة. بل يجعلها تفسح الطريق إلى أجيال جديدة كلها حيوية ونشاط وإنتاج ومن حكمة الله في وجود الموت أن يجعل الناس يستعدون للأبدية عارفين أن هذا العمر ليس باقيًا على الأرض.

* إننا جميعًا نؤمن بحكمة الله. وإيماننا هذا له فوائد عديدة في حياتنا. إذ نثق بالله ونُسلِّمه الحياة ونشكره على كل تدبيراته معنا ومع غيرنا، وفي إيماننا بحكمة الله نبعد عن التَّذمُّر والشكوى وعن التجديف أيضًا، شاعرين بأن كل ما يعمله الله هو من أجل خيرنا سواء فهمنا ذلك أو لم نفهم.

---

1. مقال لقداسة البابا شنوده الثالث نشر في جريدة الأهرام بتاريخ 24-8-2008م